كيف مهّد الأمويون الطريق لازدهار الحضارة الإسلامية؟

نقش الأمويون بصمتهم الخالدة في صفحات الحضارة الإنسانية، بما صنعته حقبتهم (661–750م) من نهضة ثقافية وفكرية وفنية واسعة، شملت العمارة والفنون والأدب والخطابة والشعر، وتعريب الدواوين، وبروز علماء الدين الذين أسهموا في نشر تعاليم الإسلام، كما انطلقت جهود ترجمة العلوم والآداب الساسانية واليونانية، وتدوين الحديث النبوي الشريف، ونقاشات فكرية وعقدية عكست حيوية المجتمع.

في تقريرنا هذا، نواصل التعرّف على "إرث بني أمية"، فنقترب من إنجازات الخلفاء والعلماء، ونتتبع كيف صاغوا هوية الأمة، ونسلط الضوء على النهضة العلمية والثقافية والفكرية في عهدهم، وكيف أرست جهودهم أسسًا ازدهر عليها العصر العباسي.

تعريب الدواوين

عند انتقال مركز الخلافة إلى دمشق سنة 41هـ/661م، لم تكن العربية اللغة الرسمية للإدارة في أرجاء الدولة، وفي كتابه "الدولة الأموية: عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار"، يروي الدكتور علي الصلابي أن الدواوين في بدايات الدولة الأموية كانت تُكتب في الشام باليونانية، وفي العراق بالفارسية، وفي مصر بالقبطية.

ومع اتساع رقعة الدولة وتزايد الحاجة إلى إدارة مركزية أكثر تماسكًا وفاعلية، بدأت مرحلة الإصلاحات الكبرى في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان (685–705م)، الذي أطلق مشروعًا شاملًا لإعادة تنظيم جهاز الدولة، وكان في مقدمته تعريب دواوينها.

فجرى تعريب دواوين الشام والعراق ومصر وغيرها من الأقاليم، ويرى الصلابي أن نقل الدواوين من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية كان يهدف لإزالة النفوذ الأجنبي من مؤسسات الدولة الإدارية والمالية وتحقيق شخصية الدولة الأموية واستقلالها.

الخليفة عبد الملك بن مروان منقوشة على أول دينار إسلامي سك في عهده، (ويكيبيديا)

حققت حركة تعريب الدواوين على يد عبد الملك بن مروان نتائج مبهرة في جميع الميادين السياسية والإدارية والثقافية واللغوية، ومهدت لظهور فئة مهمة من الكتاب العرب والموالي الذين حلوا محل الكتاب الفرس والروم في إدارة الدواوين. ويشير الصلابي إلى أن الحد الأقصى لرواتب الكتاب طوال العصر الأموي هو 3600 درهمًا سنويًا، وكان حدها الأدنى 720 درهمًا سنويًا.

وفي حين كان التعريب بشكل أساسي وسيلة لتوحيد نظم الإدارة في الدولة وإنهاء النفوذ الإداري للكوادر الأجنبية وتعزيز سيادة الدولة، فإن الصلابي من ناحية أخرى يرى أن التعريب جاء استجابة لتوسع الإسلام ودخول شعوب متعددة اللغات في الدين الجديد.

وفي كتابه "الدولة الأموية: أول سلالة حاكمة في الإسلام"، يرى جي. آر، أن انتشار العربية كلغة إدارة ساهم في تحويلها إلى لغة ثقافة وصعود اجتماعي، وانتشرت بين غير العرب مع اتساع الفتوحات من آسيا الوسطى شرقًا إلى جنوب فرنسا غربًا.

آنية أموية تعود إلى سنة 96 هـ، صنعت في مدينة الحيرة، (ويكيميديا)

وفي دمشق نفسها التي كانت قبل الإسلام فسيفساء من اللغات الآرامية واليونانية والسريانية، أعاد هذا التحول صياغة مشهدها اللغوي والثقافي، فأصبحت العربية لغة السوق والإدارة والعمران، وتبنتها النخب المحلية.

وبحسب عمر أبو النصر في كتابه الحضارة الأموية العربية في دمشق، فقد أدخل عبد الملك أيضًا إصلاحات على الكتابة العربية نفسها، كتحسين رسم الحروف، وإضافة علامات الإعجام والضبط لتيسير قراءة القرآن والتقليل من الخطأ واللحن.

وتبين إليونور سيلارد في دراستها نقل القرآن الكريم كتابةً في العصر الأموي، أن العهد الأموي شهد رعاية نسخ المصاحف والاهتمام بإخراجها، وإدخال إصلاحات في الرسم وعلامات القراءة، كما ارتقى الخط العربي في العصر الأموي إلى شكل معماري زين المساجد والقصور.

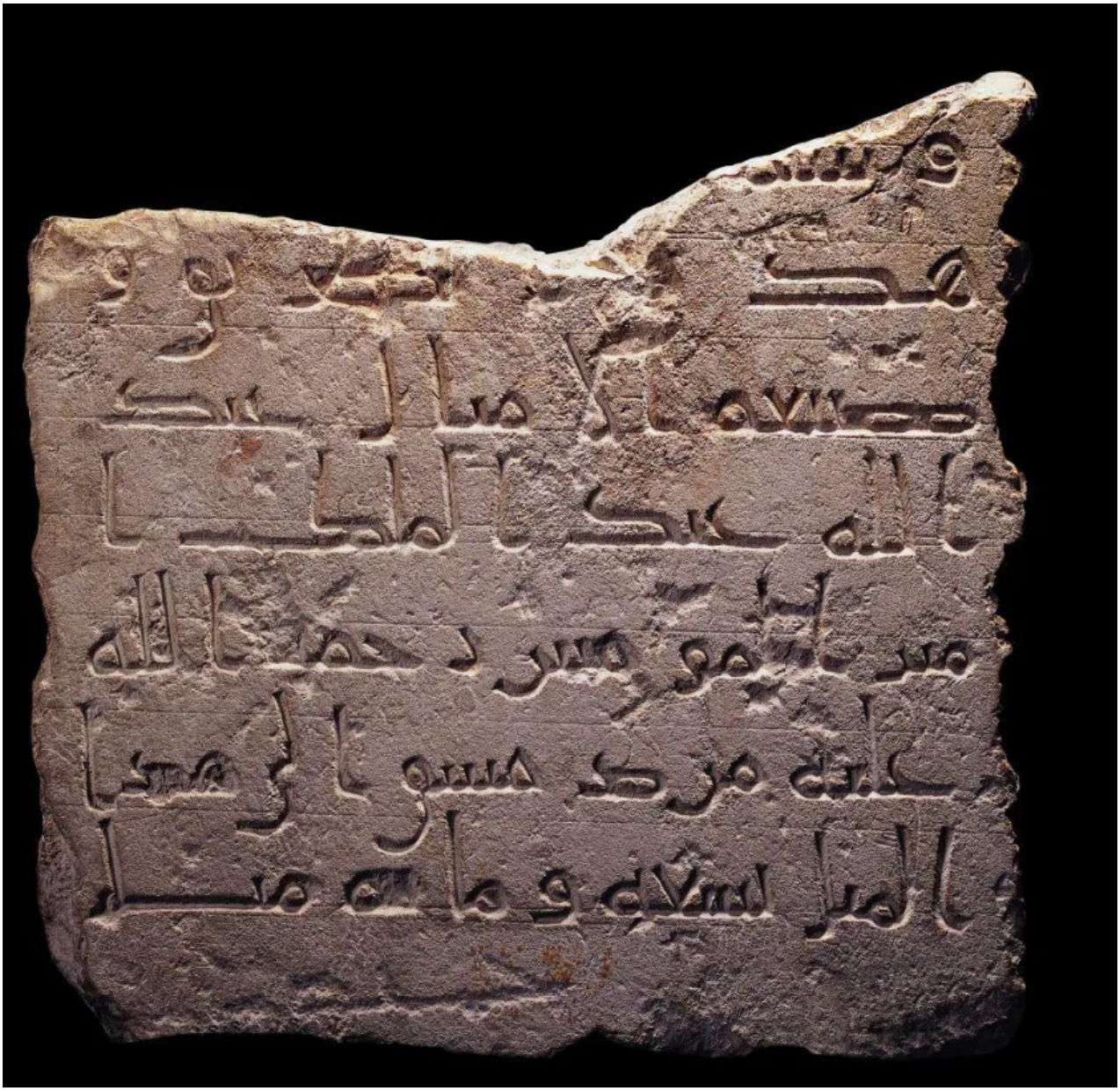

مَعلم حجري لتحديد المسافات على طرق الحج أو التجارة، يعود إلى عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (685–705م)، (متحف الفنون التركية والإسلامية)

نهضة علمية وفكرية

يروي الصلابي في "الدولة الأموية"، أن معاوية بن أبي سفيان شجع بنفسه الولاة والعلماء وأبناء الأمة على إيجاد نهضة ثقافية حضارية، وشهد عصره نهضة في التفسير وعلوم القرآن والفقه، وتألق فيه نجم عدد من العلماء الذين ظل المسلمون بعد ذلك يأخذون من علومهم ويستشهدون بأقوالهم واجتهاداتهم، وكانت العلوم الرئيسية هي القرآن الكريم والسنة النبوية والفقه واللغة العربية.

وكما يشير ابن النديم صاحب الفهرست، فقد بدأ التدوين للآثار الأدبية والعلمية في العصر الأموي منذ عهد معاوية بن أبي سفيان الذي أحب جمع الأخبار والقصص التاريخية، فأمر بتوثيقها على يد رواة مثل عبيد بن شرية، بينما استمر التأليف المنهجي لاحقًا في القرن الثاني الهجري على يد علماء مثل عبد الملك بن جريج وأبو النصر سعيد بن أبي عروبة وربيع بن صبيح.

ويشير إبراهيم زعرور وعلي أحمد في كتاب "تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري" إلى أن العلوم العربية والشرعية انتشرت في مختلف الولايات الأموية، حيث أسس عدد من الصحابة والتابعين مدارس دينية قائمة على القرآن والحديث والفقه واللغة العربية، وتركزت هذه الحركة في المدينة والفسطاط والبصرة والكوفة ودمشق، كما أصبحت مدينة القيروان مركزًا للحضارة الإسلامية بالمغرب، واستقطبت أعدادًا كبيرة من الطلاب البربر.

الجامع الأموي في حلب، (ويكيميديا)

ومع منتصف العصر الأموي إلى أواخره، بدأت مرحلة التدوين للحديث النبوي لضبط الروايات وحفظها من التحريف، وبرز في هذا الفن الحسن البصري، وابن شهاب الزهري، وسعيد بن المسيب، وربيعة الرأي، ومالك بن أنس، وسفيان الثوري، وأبو عبد الرحمن بن المغيرة، وعبد الملك بن جريج، ومغيرة الضبي، ومالك بن أنس الذي نشأ في أواخر الدولة الأموية.

في الواقع، أسهم الأمويون في دعم العلوم الدينية وترسيخ أصول الإسلام من خلال رعايتهم للعلماء، فقد أقام الخلفاء الأمويون ولا سيما عبد الملك بن مروان الذي لم يكن بعيدًا عن أجواء العلم صلات وثيقة بالعلماء، فكان يتبادل معهم الرأي في المسائل الفقهية، ويُروى أنه راسل عروة بن الزبير في بعض القضايا، كما كان المحدث سعيد بن المسيب قريبًا من البلاط الأموي، وحظي بتقدير الوليد بن عبد الملك واحترامه.

ويوضح الصلابي في "الدولة الأموية" كيف لعب العلماء دورًا مهمًا في دعم المنهج الإصلاحي للخليفة عمر بن عبد العزيز، إذ أيدوا قراراته وأسهم بعضهم في توجيهه بالنصح والمشورة، كما عمل عمر بن عبد العزيز على نشر العلم من خلال كفالة العلماء والدعاة وتخصيص رواتب لهم من بيت المال ليتفرغوا للتعليم والدعوة، بل ومنح مخصصات مالية لمن ينقطعون في المساجد للتفقه وتدريس القرآن.

النجمة الأموية في قصر هشام في مدينة أريحا بفلسطين (ويكيميديا)

ويبين جي. هوتينغ في كتابه "أول سلالة حاكمة في الإسلام"، أنه خلال العهد الأموي برزت فئة من علماء الدين الذين أصبحوا لاحقًا المرجع الرئيسي في المذهب السني، ويؤكد هوتينغ أن هذه الطبقة أسهمت إسهامًا حاسمًا في تشكيل ملامح الإسلام كما عُرف في العصور اللاحقة.

أما في مجال التعليم، فيذكر عمر أبو النصر في كتابه الحضارة الأموية العربية أن العهد الأموي شهد انتشار كتاتيب قرب المساجد في المدن والقرى لتعليم الأطفال القراءة والكتابة وحفظ القرآن، أما التعليم العالي أو المتقدم فكان يُعقد في حلقات بالمساجد، وتولى العلماء التدريس دون أجر، وتمتعوا بحرية في عرض آرائهم، كما كانت بعض الأسر تستعين بمؤدبين لتعليم أبنائها القراءة والكتابة والقرآن والشعر والأدب مقابل أجر.

بدايات حركة الترجمة ونقل العلوم

يُظن غالبًا أن حركة الترجمة بدأت مع العباسيين، غير أن جذورها الأولى تعود إلى العصر الأموي، إذ يروي الصلابي أن البدايات الأولى لرعاية العلوم وأهلها ظهرت في عهد معاوية بن أبي سفيان، وأن معاوية أنشأ بيتًا للحكمة بدمشق، أي أول دار للكتب في العالم الإسلامي.

وتشير بعض الروايات إلى اهتمام معاوية بشكل خاص في نقل معارف الطب إلى العربية، كما ارتبط بلاطه بعدد من الأطباء والمثقفين، ومنهم الطبيب ابن أثال الذي يُنسب إليه نقل بعض المعارف الطبية إلى العربية.

ويمكن القول إن عملية التعريب نفسها التي قادها عبد الملك بن مروان (685–705م) لم تسهم فحسب في نقل عدد كبير من المصطلحات الإدارية والمالية إلى العربية، بل فتحت الباب أمام حركة ترجمة للمعارف الأجنبية، ويوضح الصلابي أن البدايات الأولى لحركة الترجمة تعود إلى جهود الأمير الأموي

خالد بن يزيد بن معاوية، الذي يُعد من أوائل من شجعوا ترجمة كتب الطب والكيمياء من اليونانية إلى العربية.

فقد أمر خالد باستقدام عدد من العلماء اليونانيين الذين تلقوا علومهم في مدرسة الإسكندرية بمصر، وكانوا يتقنون العربية، وكلفهم بترجمة مجموعة من الكتب من اللغتين اليونانية والقبطية إلى العربية، كما طلب منهم ترجمة مؤلفات الطبيب اليوناني جالينوس في الطب.

ولم يقتصر اهتمام خالد على الطب والكيمياء، بل امتد إلى علوم أخرى، فترجمت في عهده كتب في الفلك والنجوم، والحروب والآلات والصناعات، وقد عُرف عنه أيضًا قربه من المترجمين والفلاسفة وأهل الحكمة وأصحاب الحرف.

ويروي عمر أبو النصر في كتابه "الحضارة الأموية العربية" أنه مع عهد عبد الملك بن مروان بدأ الاهتمام الرسمي بالترجمة ونقل العلوم، خاصة من اليونانية والسريانية، واستمر ذلك في عهد عمر بن عبد العزيز الذي أولى أيضًا عناية بالعلوم الطبية، ونقل مدرسة الطب من الإسكندرية إلى أنطاكية، وعين ابن الأبجر للإشراف عليها.

لقد أولى الأمويون اهتمامًا كبيرًا بالطب، فالخليفة معاوية بن أبي سفيان أنشأ مشفى في دمشق، والخليفة الوليد بن عبد الملك أنشأ سنة 88هـ / 707م بيمارستان لعزل المجذومين وأسكنهم في قرية معزولة، كما انتشرت البيمارستانات في مدن أخرى كالفسطاط في مصر، ما يدل على أن الطب كان في صدارة العلوم في العهد الأموي.

ويروي عمر أبو النصر أن حركة الترجمة والاهتمام بالتراث غير العربي استمرت في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك الذي عُرف بشغفه بالاطلاع على الآثار الأدبية والفكرية للأمم الأخرى، فأمر بترجمة كتاب فارسي يتناول تاريخ الفرس.

وقد انتقل هذا الاهتمام إلى بعض المقربين منه، فقام سالم مولاه بترجمة عدد من مؤلفات أرسطو إلى العربية، لكن نشاط الترجمة أخذ يتراجع مع نهاية حكم هشام بسبب الاضطرابات الداخلية التي شهدتها الدولة الأموية.

تطور القضاء والفقه

في بدايات الدولة الأموية، كان الوالي يتصدر الهرم القضائي في ولايته ويتمتع بصلاحيات واسعة للفصل في الخصومات، كما مارس الخلفاء أنفسهم دورًا قضائيًا، ومع مرور الوقت، بدأ منصب القاضي يتبلور تدريجيًا كوظيفة محددة، ويبين ماثيو تيلييه في دراسته الأمويون ونشأة القضاء الإسلامي، أن العصر الأموي شكل مرحلة حاسمة في تأسيس القضاء، إذ تم بناء هياكل إدارية وقانونية اكتمل نضجها في العهد العباسي.

في الواقع، شكل العصر الأموي مرحلة تجريب ونقاش في تنظيم القضاء وإجراءاته، قبل أن تستقر القواعد ضمن الإطار الفقهي المنهجي في العصر العباسي، كما أسهمت الحوارات بين القضاة والعلماء أحيانًا بمشاركة الخلفاء والولاة، في تقارب الممارسات وتوحيدها تدريجيًا.

وكما يذكر الصلابي، فقد كان القضاة في العهد الأموي يتقاضون رواتب من الدولة، تتراوح بين ألف ومائتي درهم سنويًا كحد أدنى، وثلاثة آلاف درهم كحد أقصى، وقد شغلوا مناصبهم لفترات قصيرة، وجاء عدد كبير منهم من خلفيات إدارية وعسكرية. وفي مصر جمع بعض قضاة الفسطاط بين القضاء ورئاسة الشرطة أو الإشراف على بيت المال، فأصبحوا في مرتبة تلي الوالي مباشرة، بينما مال العراق إلى اختيار القضاة من الأوساط العلمية.

أما جلسات القضاء، فلم يكن المسجد مقرًا ثابتًا لها في البداية، إذ عُقدت في الأسواق والساحات العامة، ثم عقدت داخل المساجد في أواخر العصر الأموي. ومن الإنجازات المميزة للعهد الأموي في القضاء، بداية تدوين الأحكام القضائية التي يصدرها القاضي، ويعتبر سليم بن عنز التجيبي قاضي مصر في عهد معاوية أول من سجل الأحكام القضائية.

وفي دراسته عن الأوزاعي وتأثير بني أمية في تطور الفقه الإسلامي، يوضح ستيفن جود أن عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي كان قريبًا من الخلفاء الأمويين، وله اجتهادات فقهية عدة. كما يروى ابن النديم في كتابه "الفهرست" أن الأوزاعي ألف كتبًا فقهية، وقد نسب ابن النديم كتابين للأوزاعي، هما كتاب السنن في الفقه وكتاب المسائل في الفقه.

ويكشف تتبع آراء الأوزاعي عن إسهام في تشكيل الخطاب الفقهي المبكر، وقد استمر مذهبه في الأندلس مدة طويلة قبل أن تحل المالكية محل مذهبه، ولم يكن الأوزاعي حالة منفردة، إذ برز إلى جانبه علماء مثل الشعبي ومكحول والزهري وغيرهم.

في الواقع، استمر القضاء في العهد الأموي على معالمه الأساسية من العهد الراشدي، مع مراعاة التطورات الناتجة عن اتساع الخلافة، ويوضح الصلابي أنه ظهرت في العهد الأموي مصادر جديدة للأحكام القضائية تشمل العرف، وقول الصحابي، وإجماع أهل المدينة، إلى جانب القرآن والسنة، والمصادر الاجتهادية كالقياس والإجماع والرأي.

أما على الجانب الآخر، فقد واصلت المحاكم الدينية اليهودية والمسيحية أداء دورها ضمن مجتمعاتها، لكن القضاء الإسلامي أصبح يجذب غير المسلمين تدريجيًا، نظرًا لما تميز به من أحكام إلزامية في الفصل بين النزاعات.

النهضة الأدبية

شهد العصر الأموي ازدهارًا أدبيًا وفنيًا عكس التحولات السياسية والاجتماعية التي رافقت قيام الدولة واتساعها وصراعتها، فغدت الكلمة شعرًا وخطابةً ونثرًا سلاحًا إعلاميًا وأداة دعاية وصراع في آنٍ واحد. وفي مطلع العصر الأموي، أدرك معاوية بن أبي سفيان أهمية الشعر في التأثير في الرأي العام، فقرب الشعراء إلى بلاطه، إذ كان الشعر آنذاك التعبير الأبرز عن الهوية وعنصرًا محوريًا في ثقافة المجتمع.

ومع احتدام الصراعات السياسية، ازدهرت أشعار المدح والهجاء والغزل والخمريات، وقد فتح البلاط الأموي أبوابه لشعراء كبار مثل الأخطل والفرزدق وجرير، وإلى جانب الشعر، ارتفعت مكانة الخطابة، إذ تناولت شؤون الدولة العامة واستُخدمت في كسب الأنصار والرد على الخصوم، وغالبًا ما مارسها الساسة أنفسهم. وفي الوقت نفسه بدأت تتشكل آداب المغازي التي جُمعت شفويًا ثم دُونت لاحقًا، وكان موسى بن عقبة من أوائل من اعتنى بها.

كما تطور النثر الفني في الرسائل والوثائق الرسمية، وساهم كتاب بارزون مثل عبد الحميد الكاتب في تمهيد الطريق لنهضة النثر في العصر العباسي، ويتفق كثير من الباحثين أن لعبد الحميد الكاتب أثر واضح في الكتابة والأدب النثري في العصور اللاحقة.

أيضًا برزت الموسيقى والغناء في البلاط الأموي، ولا سيما في عهد الخليفة الوليد بن يزيد الذي اشتهر بإسهامه الشعري، خاصة في تطوير قصائد الخمرية، وتحظى أشعاره بتغطية واسعة في كتاب الأغاني.

أسس العصر الأموي قواعد الثقافة والنهضة العملية التي امتدت آثارها إلى العصور اللاحقة، كما أثبت الأمويون قدرة استثنائية على الجمع بين السلطة والدين والعلم والأدب، فنهضت اللغة العربية لتصبح أداة سيادة وهوية، وبرز العلماء والفقهاء والمحدثون كمحرك رئيسي للعلوم.

وتطورت حركة الترجمة ونقل المعارف الأجنبية، وارتقى القضاء والفقه والنظم الإدارية إلى مستويات متقدمة، وازدهرت الفنون الأدبية والشعرية والخطابية والنثرية في آنٍ واحد، كل تلك الإنجازات لم تكن فحسب تعبيرًا عن مجتمع حيوي، بل مهدت الطريق التي أمام العصر العباسي.

رابط المقال: https://www.noonpost.com/361825/